

الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد

الأستاذ : فتح محمد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس

على الرغم من أن الشعر الأندلسي قد خضع بدراسات مستفيضة تميزت بالتحليل والتمحيص لقضاياها الأدبية وظواهره الفنية، إلا أنه لا يزال «الكثير الكاثر» في حاجة إلى التناول والدرس تماشيا مع ما كانت عليه الأندلس من مد و جزر وانطلاق وتقهقر» وما بقي مطمورا في خفايا التسيان ومحنطاً بين طيات كنوزه الدفينة في الخزائن العامة والخاصة. كما أن الكلمة الأخيرة في شتى ضروب المعرفة لم تقل بعد، لأن كثيراً من الحقائق المتوصل إليها قد تنهوى وتتعرض للتصدع والانهيار بفعل تغيرات الزمن، وما يحمله من نظريات وأفكار مقاربية ومتباعدة عبر الأجيال المتعاقبة، فكل ثقافة وميوله ونزوعه. إذا كانت الحقيقة موجّهة البحث، فإنها غير قارة ولا ثابتة في العلوم الإنسانية خاصة في الأدب الذي يعد الرافد الأساس في هذه العلوم التي لا يحكم فيها العقل فميزانه لا يعرف الصواب والدقة فهي ليست كقضايا العلوم التجريبية.

إذا كان للميول الشخصي قدر في إصدار الأحكام في الدراسات الأدبية، فلا شك أن آراء النقاد تتباين حول بعض القضايا الأدبية، غير أن اتفاقها يعني جمود الفكر وتعطله عند حد معين، فلا يتعداه، واختلافها يترك الموضوع حياً ومفتوحاً على المناهج الدراسية التي تصل الماضي بالحاضر.

ارتبط الأدب الأندلسي بالأدب المشرقي في نشأته الأولى ارتباطاً وثيقاً، فعاد هذا الارتباط بالحيث والظلم من قبل بعض الدارسين العرب، لأن الأمر هالهم عندما انفصل الفصن عن الجذع وطغى عليه، فتما وتطور، فاستظل الناس بظله الذي لا يعرف الانحسار والانتكسار فجلب الأنظار وشهد له الأعداء والأُنصار بالبقاء والدوام، والمجال لا يسمح باستعراض كل ما قيل في هذا المقام.

تقف في هذا السياق مع بعض النيهاء في النقد الأدبي حول جدية الأدب الأندلسي أو ترديده . يرى أحمد أمين أن الأدب الأندلسي معض تقليد ينوب في غيره فلا شخصية له تميزه عن الأدب المشرقي ((ولذلك لو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل . لم نكد نحكم حكما جازما على الشاعر أغريبي هو أم شرقي . ولذلك كثيرا ما تسبب بعض الأبيات إلى أندلسي . ويشيها بعضهم إلى مشرقي . لعدم التميز الواضح حتى عند الخبراء . وربما كان مصداق ذلك ما حكى أن الشاعر الأندلسي الملقب بالغزال . وجد في بغداد جماعة من المثقفين فأنشدتهم شعرا لنفسه . وادعى أنه لأبي نواس لعظم قدره عندهم . فصدقوه . ثم قال لهم إنه لي . ولو كانت شخصية الأندلس واضحة في شعر أهلها لصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقي)) 2 . والظاهر أن مبرر ذلك مرتبط بعدم وضوح ملامح الشعر الأندلسي وتميزه عن غيره . ومدعاة ذلك أن الشاعر يحيى بن الحكم المعروف بالغزال قام برحلة إلى العراق بعد مدة وجيزة من موت الحسن بن هانئ . فوجد الناس يلهجون بذكره . ولا يساوون أحد بشعره لعل منزلته وعظم قدره في النفوس . فأنشدتهم قوله :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّرْبَ أَكَدْتُ سَمَائِهِمْ تَأَبَّطْتُ رَقِي وَاحْتَسَبْتُ عَنَائِي
فَلَمَّا أَتَيْتُ الْخَبَانَ نَادَيْتُ رِيَّهُ فَهَبَ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نِدَائِي
فَلَيْلُ هُجُوعِ الْعَيْنِ إِلَّا تَعْلُةٌ عَلَى وَجْهِ مَيِّئِي وَمِنْ نَظَرَائِي
فَقُلْتُ أَزْفَيْنَهَا فَلَمَّا أَذَاقَنِي طَرَحْتِ إِلَيْهِ رِيظَنِي وَرَدَائِي 3

فهل الحضور بالإعجاب والمدح والإطراء كل حسب انتشائه . فلما أقرطوا قال لهم (هونوا عليكم فإن الشعر لي) فانكروا عليه ذلك . فلما أدمغهم بالحجة والبرهان تفرق جمعهم وأشاحوا عنه بوجوه عبوسة مشمئة غير راضية على الشاعر لما عرفوا أنه أندلسي وليس مشرقي.

أبت نفوسهم المنتشعة بروح الاستعلاء والازدراء لكل ما هو أندلسي أن تعترف للغزال بالفضل والإجادة . فابخسوه حقه وأقلوا من قدره . على الرغم من انتمائه العربي وتميزه بين نظرائه في إجادته للشعر فحكمهم ناجم عن جهلهم لأعلام الشعر الأندلسي ولمكانة الرجل في المنظومة الشعرية العربية حيث ((لا نكد تعرف للأندلس شاعرا ممتازا

في القرنين الثاني والثالث سوى يحيى بن الحكم الغزالي⁴ لتمييزه بالموهبة والذكاء وخفة الظل .

تستوقفنا في السياق نفسه رحلة عباس بن ناصح إلى بغداد لملاقاة الحسن بن هانئ رغبة في الاستماع إلى قريضه . فأكرم وفادته وطلب إليه أن يسمعه جزءاً من شعره . فأعجب به وميزه عن الشعر المشرقي بقوله ((هذا شعر الغرب . فقام واعتقه إلى نفسه ونعته بشاعر البلد اليوم))⁵ . فليس بالأمر الهين أن يهني شاعراً في مقام أبي نواس وهو الخبير بأشعار العرب شاعراً أندلسياً . وأن يعترف له بالفضل وعلو المقام

هذا دليل دامغ على سمو الأدب الأندلسي وعلو قيمته عند كبار شعراء المشرق وعلى مدى ((استيحاء الشعراء الأندلسيين طرائق كبار الشعراء المشرقيين ومدى تمتعهم لأساليبهم حتى أنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا القصيدة لشاعرهم المجل))⁶ وهو الذي ثمن الشعر . الأندلسي وعظم شعراءه . قال في شعر أبي المخشي عندما سمع شعره ((هذا الذي طلبته الشعراء فأضلته))⁷ بمعنى أنه كان مجهولاً لدى المشاركة على الرغم من علو كعبه وجودة شعره .

لما تناهت إليه أخبار بعض شعراء الأندلس إلى المشرق من أمثال أبي الأجر جعونة ويكر بن عانة ، هتقت نقوس المشاركة إلى سماع شذوهم ، فأثى عليهم أبو نواس . فلو كانت أشعار هؤلاء . لا تضاهي الشعر المشرقي . لما حظيت بهذا الاهتمام والإعجاب ، ومما يدل على وضوح شخصية الأندلس الشعرية ، إعجاب المتبني بشعرائها . عند التقائه بالخمليب أبا الوليد بن عباد في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج طلب إليه أن ينشده أبياتاً من شعر ابن عبد ربه . فأنشده:

يَا لَوْلَا يَسْبِي الْعُقُولَ أَتَيْقَا وَرَشَا يَنْقَطِعُ الْقُلُوبَ رَفِيقَا
مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ يَمْتَلِئُ وَرَدَا يَعُودُ إِلَى الْحَنَانِ عَفِيقَا
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ أَبْصَرْتَ وَجْهَكَ فِي سَنَاهُ غَرِيقَا
يَا مَنْ تَقَطَّعَ خَصْرُهُ مِنْ رَذْفِهِ مَا بَالُ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَفِيقَا⁸

فلما أكمل إنشاده . أعجب به المتبني وهو على جلال قدره وعظيم شأنه وهو الذي وصفه بمليح الأندلس ثم أثى عليه وقال ((يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا))⁹ هذه

النظرة المميزة ، تشير بوضوح إلى سمو الأدب الأندلسي وعلو منزلته لدى خبراء الشعر العربي . وإلى نزعته الاستقلالية وتبلور شخصيته بالإتسكاك من التبعية للشعر المشرقي .

ويؤكد هذا الطرح علي الجازم ((أنا واثق من أن هناك فروقا بين الشعر الأندلسي والمشرقي ، وأنا أحس هذه الفروق حقا وأنا مدرك من غير حاجة إلى تعليل أو فلسفة أني بعد قراءتي الطويلة للشعر الأندلسي والمشرقي ، أستطيع أن ألمح الشعر الأندلسي وأن أتبين خصائصه غامضة وراء الضباب))¹⁰ هذه الوقفة التقييمية تحمل دلالة قوية على تمايز الشعر الأندلسي واختلاف خصائصه عن الشعر المشرقي . وتتفي عنه الإتياع والتقليد وترفعه إلى أمشاج الأصالة والتجديد . وللرافعي نظرة مماثلة ((لقد يخلطن من يزعم أن الشعر الأندلسي يغيب في سواد غيره من شعر الأقاليم الأخرى كالعراق والشام والحجاز))¹¹ هؤلاء النقاد ومن حاكاهم وقتوا على التقيض من سابقهم .

أما الذين سايروا طرح أحمد أمين وحكّموا على الشعر الأندلسي بأنه مجرد ترديد واجترار للشعر المشرقي على غرار ما رأى فيه العقاد ، حيث ((لم تبح به عاطفة ، ولم ينبض به إحساس ، وإنما أهله ظلوا عالة على المشاركة فيما يقولون وما يفعلون . فما هم بشيء إلا صدى لأثر المشرق وأدابه وأبواق تتجاوب فيها تلك الأصوات المنبعثة من الشام أو العراق ، فلا ملكة ولا وجدان ولا مواهب ولا استقلال))¹² ينفي العقاد نفيا لا يراوده أدنى ريب وجود شخصية أدبية تحمل الثبرة الأندلسية لأنهم يعودون إلى المشرق في جميع مناحي الحياة .

لعل هذه الأحكام مستمدة من ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة فهو يرى أن الشعر الأندلسي مجرد محاكاة وتقليد للشعر المشرقي ، ((إن هذا الأفق (الأندلس) أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحنيث إلى قنادة ، حتى ولو نعى بذلك الأفاق غراب أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا على ذلك كتابا محكما))¹³ . حكمم بن بسام على بني وطنه وأهله بأنهم محض مقلدين ومرددين لأقوال غيرهم . لا يتوفر شعرهم على سمات معينة تظهر خصائصه

يتحدث بدير متولي في الغرض ذاته فيجعل التقليد في الشعر الأندلسي إطارا زمنيا يحصره في القرون الأولى للفتح ، حيث كانت الأندلس في طور التكوين ، تبحث عن الذات . فتمت وجهها نحو المشرق أرض الآباء والأجداد بالارتياح على أحواضها والارتشاف من

منايعها الفياضة . بحكم الإرث والسبق الثقليّ ، هلو لم يكن ((التقليد مقصودا لكان التشابه محتوما))14 بالأخص في هذه المرحلة ، ((وقد رأيناهم منذ أول عهودهم بالشعر الأندلسي يتجهون نحو المشرق ويأخذون عن شعرائه ويحاكونهم محاكاة واضحة بالأخص الشعراء العباسيين . فلم يستطيعوا في القرنين الثاني والثالث أن يظفروا بمعان جديدة عليها مسحة الابتكار والتجديد ، بل إنهم لم يصلوا إلى براعة التصوير إلا بعد القرن الثالث))15 الهجري نستجلي مما سبق أن ظاهرة التقليد سمة طبعت الشعر الأندلسي أمدا ليس بالقصير . كما بدا من النص الأخير .

إن التطلع إلى التجديد والتملص من أسر التقليد لم تظهر بوادره إلا منذ القرن الرابع الهجري . كنتيجة للتحرر السياسي الذي توجب أن يعقبه تحرر ثقليّ فكانت الموشحات والأزجال ((فهي بحق أول محاولة تجديد في الشعر العربي على الإطلاق))16 وأول ابتداع عربي أصيل دل على تطور فن القول وحلم أسر القيد والإتباع . لأن طبيعة الحياة الاجتماعية المتباعدة كانت السبيل إلى التبدل والتغيير .

تميزت الفترة السابقة والمعروفة بعصر الولاة بالنضوب في الإنتاج الفكري والأدبي نتيجة الاضطرابات السياسية والصراعات القبلية بين المضرية واليمينية ، والعنصرية بين العرب والبربر من أجل مقاليد الحكم . وبين هؤلاء والثائرين من أهل البلد الأصليين . وبذلك لم تتوفر الأندلس على بنية ثقافية لها صبغة محلية . لأن جنود الفتح جلهم بربر عهدهم بالعربية غير بعيد . والأقلية العربية منشغلة بالأوضاع الفتح همها الأوحـد الاحتفاظ بالأندلس . فلا يعقل والحال هذه أن تعرف الأندلس نهضة فكرية وأدبية في ضل الاضطرابات السياسية والاجتماعية .

والحقيقة أن الأوضاع لم تهدأ نسبيا إلا بقدوم صقر قريش عبد الرحمن الداخل الذي مهد السبيل لإرساء قواعد الدولة . فتدفقت الهجرات العربية من المشرق نحو الأندلس فكان من بينهم الكاتب الفذ والشاعر المغلق .

وجد الرعيل الأول نفسه في عالم مغاير من حيث البيئة والثقافة ، فأدبها كان مطمورا ولغتها فاقدة الروح جامدة هجرها بنوها وأهلها وشهد نبهاؤها وفضلاؤها بذلك17 ، فكان

طبيعياً أن يحمل الإنتاج الأدبي لهذه المرحلة في طياته النقطة العربية الأصيلة المتحدة النوع والمذاق مع المشرق، فهو كالثمرة التي تحافظ على طعمها مهما تغيرت بها التربة أو البيئة.

لم تزود الأرض الجديدة العرب بمعالم ثقافية إضافية غير رياضها الساحرة، لأنهم كانوا مشبعين بأصالتهم ولغتهم فلم ينفصلوا في عالمهم الجديد عن ماضيهم التقليدي وتراثهم الحضاري المجيد، فارتبط بذلك الشعر الأندلسي في نشأته الأولى ارتباطاً وثيقاً بالشعر المشرقي مبنياً ومعنى. لأن نظم الشعر كان متصلاً ومتغلفاً في نفوس هؤلاء الوافدين وسجية من سجايهم. فلما نجد فيهم من لا يمارس قرض الشعر فقد عرف عنهم ((منذ العصور الأولى كلفهم بالشعر خاصتهم وعامتهم فصار يجري على كل لسان حتى كان باستماعة الفلاح الذي يحرث الأرض أن يرتجل من الأشعار فيما شئت من المعاني)) 18 فجاءت أشعارهم صدى لأوطانهم التي غادروها بأبدانهم لا بقلوبهم فظلت عالقة بأذهانهم يراودهم الحنين والشوق إليها في كل حين وأن.

يروي أن عبد الرحمن الداخل تأقت نفسه شوقاً إلى رؤية أخته (أم الأصبغ) التي خلفها وراؤه في بغداد. عندما لح بصره أحد الركاب يتهاى للسفر وهو لم يستطع حراكاً، فجادت فريحتة بهذه الأبيات التي يدد بها كرب النفس ووهج الشوق وألم الإحساس بالغربة:

أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُتِمُّمُ أَرْضِي	إِفْرِمْنِي بَعْضَ سَلَامٍ لِبَعْضِي
إِنْ جَسَمِي كَمَا تَرَاهُ بَارِضٍ	وَفُؤَادِي وَمَا لِكَيْهِ بَارِضٍ
قَدَّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَاهْتَرَقْنَا	وَمَطَى الْبَيْنُ عَن جُفُونِي غَمَضِي
قَدْ حَضَنَى اللَّهُ بِالْفِرَاقِ عَلَيْنَا	فَعَمَسَ بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي 19

يظهر أن شعر هؤلاء الأمراء والولاة لا يمت بصلة للأندلس لأنهم وفدوا إليها بلغاء فصحاء يجيدون القول نظماً ونثراً غير أن الإحساس بظهور الشخصية المتميزة أخذ ينمو ويتطور مع السنين لعدة عوامل أهمها، تفاعل العرب مع بيئتهم الجديدة واختلاطهم بالأمم البعيدة كان مدعاة للابتعاد عن المشرق وظواهر حياته ((فصارت الأندلسية صفة عامة لهم أو رمزاً دالاً عليهم أو مصطلحاً خاصاً بهم)) 20.

فوطنوا أنفسهم واتخذوا أرضهم دار مقام لا ينزعهم فيها منازل فأعلنوا انفصالهم السياسي عن بغداد بتأسيس خلافة قرطبة فانتعشت الآداب والعلوم والفنون وعرفت تطورا مشهودا في عهدي الخلفاء وملوك الطوائف الذين تناضسوا في إغداق الأموال وأزجال الهبات والعطايا لاستمالة العلماء واستقدامهم فكان قنوم أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي ((يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية وعنه تلقى الأندلسيون فاتخذوه حجة)) 21 فأورث الناس علمه وأدبه .

ذكر كراتشوفسكي ((أن الخدمات الجليلة في غرس علوم اللغة ، إنما ترجع للقالي)) 22 ورحل إليهم من العدو المقابلة المقرري وابن خلدون ، فتفاعلت جهود المشاركة والمغاربة في بناء الشخصية الثقافية للأندلس . بنشر العلم وترغيب الناس في طلبه ، فأضحى عندهم عظيم المكانة وفي غاية الاحترام والتبجيل . فعلا قدره ونما شأنه لأنه المنطلق الأساس في كل نشاط فكري.

تشبعت الناضئة بدراسة اللغة العربية ومدارسها فشبت على التعلق ((بالشعر رواية وتناشد ونظما ، حتى ازدهر الشعر في ربوعهم وانتشر بين خاصتهم وعامتهم طريقة لا نجدها عند أهل الأمصار الأخرى)) 23 لأن العلوم نالت حظا وافرا من العناية والاهتمام ، فتربت الأجيال على فن القول والتغني به لأهميته في النفوس فلم يبق الشعر حكرا على الشعراء وحدهم بل ذاع وانتشر انتشار الهواء العليل

وقت الأصيل فتكسرت شمس النيل والفرات على صخرة طارق ، لتبزع في غدها المشرق بأشعتها الذهبية على طبيعة الأندلس الخلابة . فأنارت الخيال وأنارت الوجدان فتعجرت النفوس بالطف المعاني وأسماها فتطقت الألسن أدبا جديدا جميلا نابعا من المجتمع يحمل خصائص أهله وصفاتهم ويكشف عن مألوف عاداتهم ومطابعهم مست أنواقه كافة طبقات المجتمع على اختلاف أهوائها ومشايخها . فكان لذلك الأثر البالغ في بزوغ الشخصية الفكرية والأدبية لأحفاد طارق الذين ألوا على أنفسهم نزع رداء نجد ومضرنزوع الحية لثوبها

في فصل الأنوار ، والتعلق بالرياض الفواحة والأنهار الفيضانية فأجادوا في وصفها وأبدعوا حتى

غدا الوصف من الأغراض التي فاق بها الأندلسيون المشاركة .

إن هذه الجدة لم تؤد بالأجيال المتلاحقة إلى الانسلاخ من أرومتهم ، بل ضل الحنين

يرادهم إلى صحراء الجزيرة وسهول الشام ورياض بغداد وإن لم تكتحل بها أبصارهم .

كان طليعيا أن يحمل أدب هذه الأجيال سمات مميزة ومتباينة عن نظيره المشرق

فـ«الشعر كالماء يأخذ لون إنائه وهو مثل كل مخلوق حي نابض يتأثر بالبيئة التي هو فيها»²⁴

فالشعر الجاهلي غير الشعر الإسلامي فهذا وذاك غير الأندلسي وإن اقتضى أثرهما فضررب

اللاحق على قدم السابق أمر ليس فيه نظر. ومن ثم فلا يمكن القول أن الشعر الأندلسي

يمكنه الانفصال التام عن نظيره المشرقي أو لا يتموقع معه في شيء ، لأن أواصره تتخطى

الحدود الإقليمية وترسم أفاقا بعيدة المدى للأمة العربية التي ترتشف من نبع حضاري مشترك

يحفظ ويغذي ثقافتها التي لا ينبغي أن تظل متشردمة الأهداف متمزقة الأوصال.



الإحالات :

- 1 - علياء أبو مصطفى ، ابن سهل الأندلسي شاعر إشبيلية ووشاحها دار الندوة القاهرة 1994 ص(ب)
- 2 - أحمد أمين ، ظهور الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط5 ، ج 3 ص 104 - 105
- 3 - ابن دحية عمر ، الشطرب من الشعراء أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون القاهرة 1954 ص 11
- 4 - م.س.ص 36
- 5 - عبد القادر هني ، مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي دار الأمل الجزائر ص 36
- 6 - عبد القادر صلاحية ، صور الخيال في الشعر الأندلسي / رسالة نصوصه مخطوطة جامعة دمشق 1998 ص 102
- 7 - عبد القادر هني ، مظاهر التجديد في الشعر ص 36
- 8 - عمر الدقاق ، ملامح الشعر الأندلسي ، مطبعة حلب ، 1978 ص 70
- 9 - محمد عبد المتعم خفاجي ، الأدب الأندلسي التطور والتجديد ، دار الجيل بيروت ط 1992 ص 297
- 10 - محمد رجب البيومي ، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر ، نشر دار الثقافة المملكة العربية السعودية د ت ص 22
- 11 - عبد القادر هني ، مظاهر التجديد ص 12
- 12 - م.س.ص 11
- 13 - محمد عبد المتعم خفاجة ، الأدب الأندلسي ص 328
- 14 - إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة بيروت ط (7) 1985 ص 201
- 15 - عبد القادر هني ، مظاهر التجديد ص 98
- 16 - م.س.ص 96
- 18 - للمزيد ينظر : محمد عبد المتعم خفاجي ، الأدب الأندلسي ص 295 - 262
- 18 - حسناء بوزونة الطرابلسي ، حياة الشعر في نهاية الأندلس ، دار العربية تونس ط (5) 2001 ص 83
- 19 - نافع عبد الله ، الشوق والحنين ص 55
- 20 - م.س.ص 58
- 21 - عمر الدقاق ، ملامح الشعر الأندلسي ص 30
- 22 - م.س.ص 33
- 23 - حسناء بوزونة الطرابلسي ، حياة الشعر في نهاية الأندلس ص 60
- 24 - محمد رجب البيومي ، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر ص 22